ثمة ملاحظات أولية يجب تسجيلها للتعرّف على الخصائص التي ميّزت يهود المغرب عن إخوانهم في البلاد الأخرى؛ فمن حيث النشأة، هم من أقدم الجاليات اليهودية التي خرجت من الشرق الأدنى، ففي حين ترجع الهجرات اليهودية إلى مختلف أقطار العالم إلى القرن الأول الميلادي (بعد تحطيم هيكل سليمان في القدس)، نلاحظ أن اتصال اليهود بالمغرب يرجع إلى ما قبل ذلك بعدة قرون؛ فهو يعود إلى الوقت الذي وفدت فيه الهجرات الفينيقية إلى تونس واستقرّت هناك. فقد لحق بهؤلاء الفينيقيين بعض العبريين الذين تآلفوا مع السكان الأصليين من البربر، حتى نشأت بعض جزر يهودية داخل المحيط البربري الكبير، واندمجوا في حياة السكان الاجتماعية والثقافية بمعزل عن الادارة الرومانية أو البيزنطية، فحين تدهور حكم بيزنطة، قبيل الفتوحات الاسلامية، برز اليهود إلى مركز قيادي في شمال افريقيا. وبعد أن ساد الاسلام شعوب شمال افريقيا، احتفظ عدد من البربر بديانتهم اليهودية منتفعين بروح التسامح التي سادت البلاد الاسلامية ازاء الأقليات الدينيّة.

وعاش اليهود الأصليون والبربر المتهوّدون، إبّان العصور الوسطى، حياة هادئة. وهيأت لهم معرفتهم باللغات الاوروبية أن يلعبوا دور الوساطة في الأعمال التجارية والديبلوماسية بين الدول المغربية من جهة والدول الاوروبية من جهة أخرى. وقد حاول الباحث اليهودي، اوزامبيت، دراسة أوضاع يهود الجزائر في الثلاثينات والتعرف إلى أصولهم من خلال تركيب الأسر، فوجد أن نسبة ٤٨٪ منهم ذات تركيب بربري، و١٢٪ من اشتقاق عبري، أما الـ ٤٠٪ الآخرون فوجد أنهم من أبناء النازحين من اسبانيا أو من دول اوروبية اخرى. أما عن حياتهم، فيقول: «ان الوحدة كانت تجمعهم مع سائر مواطنيهم بحيث أنهم كانوا يتقاسمون الخيرات والويلات، إذا ما حدثت. والشيء الظاهر هو أن الوحدة الدينية كانت أيضاً تجمع كل اليهود في المغرب دون الأخذ بعين الاعتبار أصلهم الديني، بعكس ما كان يحدث في اوروبا، بحيث لو اعتنق أحد اليهود المسيحية يظل انتماؤه القديم يلاحقه وينعكس عليه»[٣].

الملاحظة الثانية التي يجب تسجيلها هي الكثرة العددية؛ إذ وصل عدد اليهود إلى نصف مليون شخص موزعين على النحو التالي: ٢٢٥ ألفاً في المغرب الأقصى؛ ١٤٠ ألفاً في الجزائر؛ و١٠٥ آلاف في تونس[٤]. وهكذا كانت الجالية اليهودية، في المغرب العربي، ثالثة جاليات العالم بعد جاليتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. فلا غرو أن تبذل الحركة الصهيونية نشاطاً خاصاً لاجتذاب يهود المغرب، لاسيما وأن الجالية اليهودية في المغرب وجدت دائماً معارضة؛ وذلك لما كانت تتمتع به من ازدهار، لدرجة أن السلطان كان، فيما مضى، عندما يحتاج إلى بعض المال، لم يكن يجد أمامه سوى اليهود ليقترض منهم.

وما كاد المغرب يفتح أبوابه للعالم الخارجي حتى استفاد اليهود من الصلات باوروبا، وأخذوا يتقدمون أيضاً في المجالين الاجتماعي والثقافي. وكانت تونس أسبق من المغرب الأقصى في هذا الانفتاح، فقد عمد أحمد باي إلى استخدام اليهود في الادارة، جنباً إلى جنب، مع سائر المواطنين، وتطور الأمر أكثر في عهد محمد باي الذي قرر إلغاء